زمن الرجل الطيب
رواية

إهداء

"إلى الذين لم يرَهم أحد. إلى الذين عَبَروا الحياة بأعينٍ لم ترَ إلا الظلام، لكنّهم كانوا قادرين دومًا على إبصار الطريق.

إلى كلّ من انتظر مطرًا لم يأتِ، وصدّق أنّ في وجه طفلٍ أعمى قد تُشرقُ شمسٌ جديدة.

إلى المغرب؛ أرضًا وتاريخًا، جراحًا وأحلامًا، ذاكرةً وأملًا."

"..ثم شرهوا لتملك سواحل المغرب الأقصى فهجموا عليه و جالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها و نشبوا فيها فقويت شوكتهم و عظم ضررهم على الاسلام و طمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك .. فلم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا و رباط الفتح و فجئ المسلمون من هذا البرتغال بالأمر العظيم و دهنوا منه بالخطب الجسيم و استحوذ عدو الله على بلاد الهبط و ضايقهم بها حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف و القرى النائية عن السواحل، و كان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بني وطاس و ظهور دولة الشرفاء السعديين.."

ـــــ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج2 - أبو العباس شهاب الدين الناصري

"... لم يغادر المغاربة حتى ذلك الوقت محيط بلداتهم. كانوا فقط ليلاً يذهبون للنوم في القرى المجاورة. وعندما يحل الصباح، يعودون مباشرة إلى قمم تلك الجبال والتلال... مثل قوم حزينين... وكانوا ينتقلون من بعض تلك القرى إلى أخرى أبعد أملاً في العثور على مزيد من الأمان. ولهذا السبب كان بعضهم طوال النهار ينقل أمتعتهم على حميرهم..."

ـــــ حوليات الكوند دوم دوارتي دو مينيس - دي زورارا

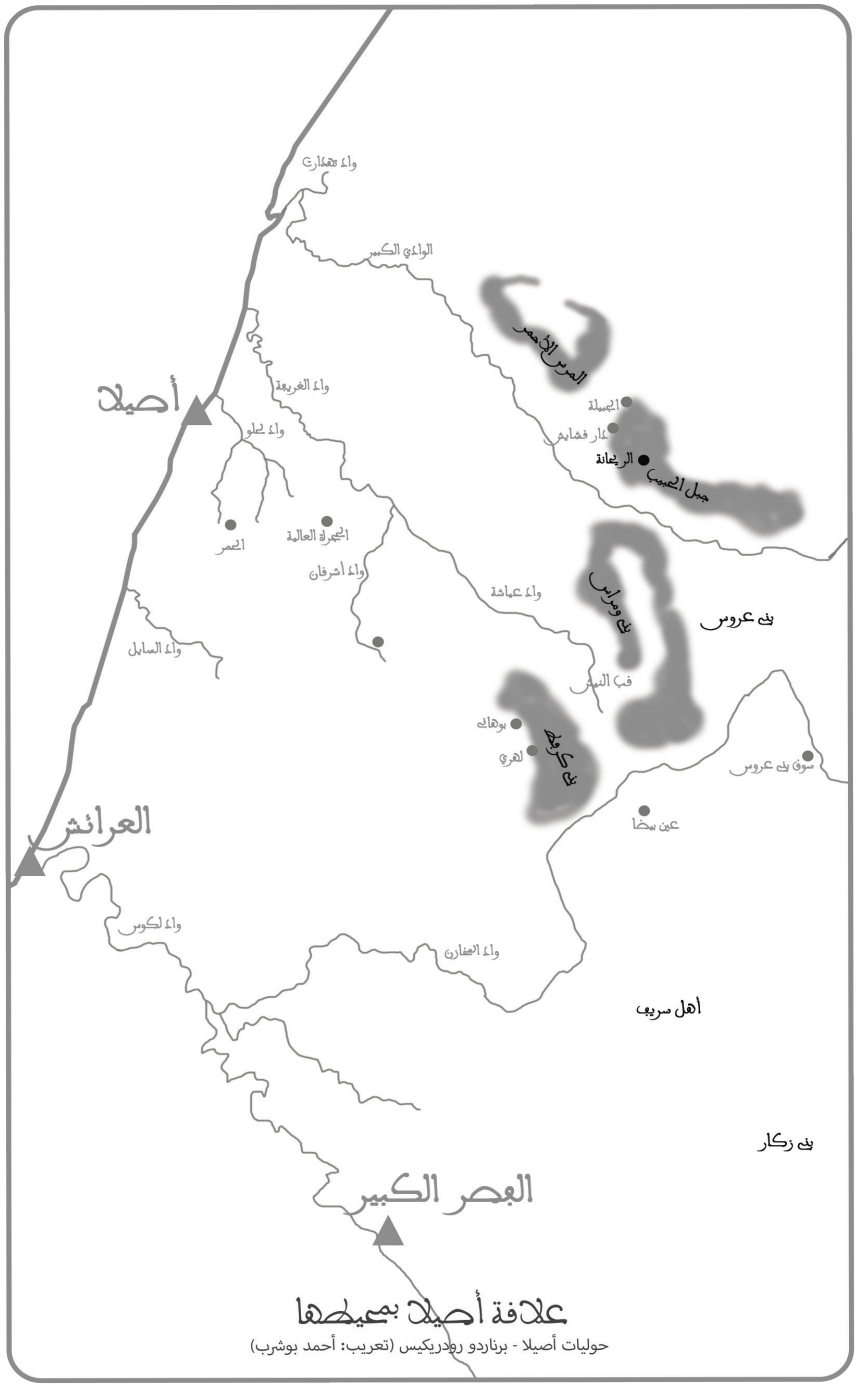

علافة أصيلا بمحيطها

حوليات أصيلا - برناردو رودريكيس (تعريب: أحمد بوشرب)

أصيلا أثناء الاحتلال البرتغالي

مقاومة الوجود الايبيري بالثغور الشمالية حسن الفيكيكي

محمد الوطاسي البرتغالي[1]

أصيلة – محرَّم 913 هـ / أكتوبر 1508 م

قبل الفجر بلحظة زمجر أوّلُ مدفعٍ مغربي فوق تلة وادي أشرقان[2]. اهتزّت الأرض تحت أقدام الجنود. طار شررٌ برتقالي شقّ السماء نحو الغرب ثم ابتلعَه الضباب. في البعيد اهتزّ برج باب مدينة أصيلة، وتصاعد عمودُ غبارٍ كثيف.

وقف السلطان محمد الوطاسي — الذي يهمس المغاربة بلقبه "البرتغالي" — يراقب شرارة برتقالية أخرى خرجت من فوهة المدفع الضخم.

دوّى صوتُ المدفع. خُيِّل إليه أنّ الشرارة التي انطلقت صارت حبلًا يرتدّ إلى يده التي قُيِّدتْ طفلًا. قال في نفسه: «إن أخطأتُ هذه المرّة

1 سلطان وطاسي، حكم المغرب بين عام 1504 و 1525، أسره البرتغاليون في طفولته عندما احتلوا أصيلة فعرف بالبرتغالي.

2 نهر شرق أصيلة، أحد روافد نهر الغريفة

فـلن أُفـلت أبـدًا من لقبهـم البغيض.»

كان قـد أشـرف علـى صنـع ذلـك المدفـع بنفسـه في دار النحـاس بفـاس. لا يزال يحـكّ نـدبة النحـاس السـاخن عنـد معصمـه كلّمـا دوّى المدفـع.

وراءه علـى الهضبة، بـدأت خيـام المعسـكر تـهتزّ وتقطـر نـدىً من الليـل. فيهـا كان يـرى الجنـود يربطـون السـروج ويشـدّون السيـوف، بينمـا ارتفـع التكبيـر من الخيـام كأول صيـحةٍ في سـكون الصبـاح. حولـه كانت الخيـلُ تشـمّ رائـحة البـارود، تضـرب الأرض، وجنـود يشـدّون الحبـال. بـدت في عيونهـم خفقةُ فزعٍ مشتـركة، بينمـا لمـح السـلطان وجـوهَ الشبـابِ الصغـارِ تتقلّـص، وبعضهـم يحـاول إخفاء ارتجـافةٍ تحت الـدّراقة[3]. في وجوه شـابة أخـرى، رأى السـلطان شيئًـا آخـر غيـر الخـوف. نظـرات خـاطفة، سـريعة، يتبادلهـا الجنـود حين يظنـون أنـه لا يراهـم. نظـرات فيهـا سؤال صـامت: هـل هذا السـلطان الذي أمامنـا مغـربي حقـاً، أم شيء آخـر؟

سـمع همسـاً خافتـاً من خلفـه، كلمـات متقطـعة يحملهـا الريـح: "... قالـوا إنـه يتكلـم البرتغـالية أفضـل من العـربية..." "... والصـليب الذي كان معلقـاً في غرفتـه في فـاس..." "... لا يصـلي بنفـس الطـريقة..." كل همسـة كانت تطعنـه أعـمق من سيفٍ. يعـرف أن الشـائعات تسـري بين الجنـود أسـرع من النـار في الهشيـم. يعـرف أن بعضهـا صحيـح، وهذا مـا يجعلهـا أكثـر إيلامـاً. استـدار فجأة، نظـر إلـى الجنـود خلفـه. صمتوا فـوراً، انتصبـوا في مواقفهم، عيونهـم تحـدق في الأفق. لـكن الصـمت كان أسـوأ من الهمـس. صمت مليء بالخوف... والشـك.

فكـر: "إن انتصـرت اليـوم، سيقولـون إن اللـه نصـرني رغـم مـاضيً. وإن انـهزمت، سيقولـون إن اللـه عـاقبني بسببـه. في كلا الحـالين، سأبقـى 'البرتغـالي'."

انتظـر السـلطان إشـارة ربّـانية من المـجذوب عـلي الـدوّار[4]. كان يخشـى أن يبـدأ المعـركة قبلهـا فيُقـال: عصـى بـركةَ الـوليّ فانكسـر.

3 تروس جلدية استعملها المغاربة عوض التروس المعدنية الثقيلة لدى الأوروبيين

4 مجذوب كان له شأن عظيم عند أهل فاس، سيدفن لاحقا خارج باب الفتوح

في الليلة السابقة، لم ينم. جمع قادته في خيمته الكبيرة. نشر على الأرض خريطة مرسومة على جلد الماعز، عليها رسم بدائي لأصيلة وأسوارها. أشار بإصبعه إلى نقطة عند البرج الشرقي، وقال بلغة عربية فصيحة:

هنا الثغرة. رآها كشافة ابن راشد أمس. حجارة فضفاضة، لم يرممها البرتغاليون بعد.

نظر المنظري قائد مدينة تطوان إلى الخريطة، عبس:

?Y qué de los cañones sobre los muros, señor mío
(والمدافع على الأسوار يا مولاي؟)

تردّد السلطان لحظة، ثم نظر إلى عيونهم، واحدةً تلو الأخرى، كأنه يختبر مقدار صمتهم. ألقى نظرة سريعة إلى ستار الخيمة المنسدل، يتأكد أنّ لا أحد يسمع من الخارج. ثم قال، بصوت منخفض، بالبرتغالية:

Três apenas. Antigos, requerem largo tempo para ..recarregar
(ثلاثة فقط. قديمة تحتاج وقتا طويلا لإعادة التحميل.)

كان محفوظ قائد "أسجن" يتحسس ندبة قديمة في يده، إرث معركة سابقة، حين قال:

ايمارا والو.. وانوذيف شا؟ (وإن فشلنا في الاقتحام؟)

صمت السلطان لحظة. فشل الاقتحام يعني حصاراً طويلاً. والحصار الطويل يعني وصول النجدة من البرتغال. وهذا يعني... "لن نفشل." قالها بحزم، إلا أن في داخله صوت آخر يهمس: "وإن فشلت، ستؤكد لهم كل شائعة."

عاد من شروده حين رأى المجذوب علي الدوار يتقدّم وحيدًا إلى أصيلة وهو يجرّ حُلّته في حال جذب، اعتبر المشهد كافيًا، فرفع يده مُطلقًا الهجوم.

عندئذٍ اندفعت الصفوف الأولى. ارتفع الغبار تحت الحوافر واختلط بضباب الفجر في المنبسط بين المعسكر وأسوار أصيلة. كانت الشمس تصعد ببطء، شقّت سحابةً شعاعًا واحدًا بدا كأنه سهمُ نورٍ تهديه السماء للجنود صوب المدينة.

اندفع الفرسان، رماحهم مائلة كأشجارٍ متشابكة، دراقاتهم تبرق تحت ضوءٍ رمادي. خلفهم زحف الرماة ثم المشاة تحت رايات المقدمين[5]. في أقصى اليمين، انتظرت فرقة تطوان – التي تضم أعتى الخيالة وأشدّ العلوج[6] بأسًا – بقيادة المنظري[7]، دروعهم الجلدية مصبوغة بحُمرة الرمّان، يترقّبون بداية الاشتباك للالتفاف خلف العدو من اتجاه باب البحر. نظر السلطان إلى تلك الدروع الحمراء، لون الدم أم لون النصر؟ في لشبونة رأى دروعاً مثلها تحمل صلباناً. سأل نفسه: هل سيقاتل بنفس أسلحة من استعبدوه؟ من مكانه سمع السلطان طلقات البنادق ترشّ أوائل الواصلين إلى خندق السور.

ثم دوّت ضربةُ المدفع الكبير.

كان يفتخر أن المدفع الذي أشرف على صنعه بنفسه لم يكن كالمدافع البرتغالية الصغيرة السريعة. كان وحشاً من البرونز، يحتاج ستة رجال لتحريكه، ووقتًا يكفي لغلي الماء لإعادة تحميله. لكن حين ينطلق، صوته يهز الأرض على مسافة فراسخ، وقذيفته تهدم الجدران كما يهدم الطوفان البيوت. رآه يهز سور أصيلة للمرة الخامسة اليوم. حجارة قديمة تتساقط، غبار أبيض يتصاعد، وفي وسط الدخان، يظهر ثقب جديد في الجدار.

صاح محفوظ:

ذا ونوقيب! (هنا الثغرة!)

انطلق المشاة حاملين السلالم الخشبية الطويلة. سلالم صنعها نجَّارو

---

5 مفردها مقدم و هو من سيعرف لاحقا بالقائد (القايد)

6 ذو الأصل الأوروبي سواء كانوا أسرى أو أحرار، مفردها العلج

7 أبو عبد الله حفيد أبو الحسن المنظري القائد الغرناطي العائد إلى المغرب وزوج السيدة الحرة.

فاس من خشب الأرز، كل درجة منها تحمل وزن رجلين مدرعين. ثقيلة، صعبة الحمل، غير أنها قوية بما يكفي لتحمل الهجوم.

البرتغاليون لم يكونوا غافلين. من بعيد، ارتفعت مشاعل النيران على أسوار أصيلة، تعلن تحت الرايات البرتغالية عن استعدادها للحصار.

من الأسوار انهمرت عليهم المقاليع: حجارة صغيرة حادة، زيت مغلي، سهام نارية. وخلف الجدران، سمع صوت أبواق برتغالية تستدعي المدافعين. لعبة الموت والزمن. مَن سيصل أولاً: المغاربة إلى قمة السور، أم النجدة البرتغالية إلى الميناء؟

ابتعد عندها محمد البرتغالي عن الأفراك[8] السلطاني واتجه نحو السور؛ رأى أن عليه أن يَظهر بين القيّاد وألا يترك أخاه الناصر[9] يضطلع بكلِّ دورٍ ميداني. اندفع محاطًا بحرسه، متّجهًا نحو الميسرة. قرّر وهو ينظر إلى السور، أن انتقامه صار قاب قوسين.

تذكّر طفولته أسيرًا خلف الجدران، يوم أُخذ من حضن أمّه إلى لشبونة. كان عمره سبع سنوات حين جاءوا إليه. يتذكر الصوت الأول: نعال ثقيلة تدق على بلاط القصر. ثم صراخ أمه، صراخ لم يفهمه وقتها، لكنه ما زال يدوي في أذنيه كلما أغمض عينيه. كان يلعب بكرات صغيرة من الطين المحروق في الفناء، يرتبها في صفوف كجيش صغير، حين دخل الرجال بدروعهم اللامعة وصلبانهم الذهبية. لم يخف منهم أولاً. ظنهم ضيوفاً، كما اعتاد أن يرى في بيت أبيه. إلا أن أمه جرت نحوه، ركعت أمامه، أمسكت وجهه بكفيها المرتعشتين. عيناها مليئتان بدموع لم تسقط بعد. همست له بصوت مختنق:

"حفظ اسم-نك أ محمد... حفظ من تكيد... أد ور تّتّوش"

(عقر خ اسم نش امحمد ..عقر خ مين تعنيذ .. واتتوش.)

لم يفهم. لماذا ينسى اسمه؟ أين سيذهب؟ أمسكه أحدهم من ذراعه،

---

8 كلمة أمازيغية تعني بشكل عام السياج و الحاجز و هذه الدلالة انتقلت منذ العصر الوسيط لتشير إلى الخيمة السلطانية

9 أخ السلطان و حاكم مكناس، عرف بقسوته و كناه الناس: الكديد

ليس بقسوة، بل بحزم هادئ. قال شيئًا بلغة لم يعرفها. ثم أشار إلى الباب.

نظر محمد إلى أمه. كانت واقفة في وسط الفناء، يداها مضمومتان على صدرها، تبدو أكبر مما كانت قبل دقائق. لم تتحرك. لم تحاول منعهم. فقط نظرت إليه نظرة طويلة، كأنها تحفظ وجهه للمرة الأخيرة. عند الباب، التفت ليراها مرة أخيرة. رآها تسقط على ركبتيها، تجمع كرات الطين المبعثرة، تضمها إلى صدرها وتبكي فوقها. تلك كانت آخر صورة رآها من أصيلة. أمه تبكي على ألعابه المكسورة.

وها هو يحارب الآن ليستعيد أرضه، مدينته وقصره. لكنه كان هنا أيضًا ليثبت للمغاربة أنه ليس البرتغالي الذي يلقبونه به. في طريقه وهو يعطي آخر التعليمات لمحفوظ قائد "أسجن"[10]، أحسّ -فجأة- بشيء يعرقل خطاه.

نظر إلى أسفل. يدٌ تبدو كأنها نبتت من الغبار تمسّك بساقه. ارتدّ نصف خطوة. في الخلف طرق سمعه صليلُ سيفٍ يشقّ الجو. التفت باحثًا عن حراسه، حين تراخت اليد ولم تتحرك أكثر، هدأ واقترب السلطان. رأى شابًا ممدّدًا على ظهره على الأرض، ثيابه ممزّقة، وعيناه نصف مفتوحتين. تمتم بكلمات لم تُفهم. اقترب السلطان أكثر منه حتى جثا على ركبتيه، وسأله بحدّة:

مالك؟ (ماذا بك؟)

تحرّكت شفتا الشاب بتمتمة:

أ ..أنا ي...يو .. يونس... م..منن..

وصلت ضوضاء فجائية من اتجاه الخندق، فالتفت السلطان لحظة، ثم عاد بنظره، اقترب جندي مسنّ، وقال وهو يلف عمامته البيضاء قرب الجريح:

هذا ولدي يونس يا مولاي. كان يحمّل الحجارة وحده. أصابته

10 مدينة تجارية كبرى على الطريق الرابطة بين فاس وسبتة ذكرها الوزان في كتابه. تراجعت أهميتها بعد بناء مدينة وزان.

شظية.

مـد السـلطان يـده نحـو الجريـح، ثم تـوقف. الـدم... نفـس اللـون الذي رآه ينسـكب في لشبـونة، من جـرح في رأسـه حين حـاول الهرب.

رائـحة الحديـد تـملأ أنفـه. أجبر نفسـه علـى المواصلة، طبـطب على صدر الجريـح بيـد مرتـعشة، ونظـر إلـى الجـرح الغائـر، فـوق حاجبـه الأيـمن. هذا الشـاب يحـارب من أجلـه، لـكن لمـاذا؟ هـل يعـرف أن سـلطانه كان يتعلـم اللاتينية بينمـا كان هـو يـحفظ القـرآن؟ أن قلبـه يخفق أحيانـاً لذكريـات لشبـونة أكثـر من فـاس؟

في لشبـونة، لـم يـكن أسيـراً بالمعنـى الذي تصـوره. كان ضيفـاً مكرمـاً، وسجيناً مذهباً في الـوقت نفسـه. غـرفة واسـعة تطـل علـى البحـر، طعـام لذيذ، ثيـاب حريـرية. وأستـاذ عجوز اسـمه "بـادري ميغيل" يعلمـه اللاتينية كل صبـاح. "Ave Maria، gratia plena..." كان يـردد الكلمـات دون أن يفهـم معناهـا كامـلة. الأستـاذ صبـور، يصحـح لـه النـطق بلـطف، يمسـح علـى رأسـه حين ينجـح في حفظ صفـحة جديـدة.

مـرت شـهور قبـل أن يـدرك أنهـا صلـوات. وشـهور أخـرى قبـل أن يفهـم أنهـم يريدونـه أن يصدقهـا. لم يكن يعرف كيف يقـاوم. كان طفلاً، والمقاومة لا تأتي بالخـطب بـل بالصـمت الصغيـر، بالتلـكؤ الخفي، بأن ينـطق الكلمـات اللاتينية بلـهجة عـربية. في الليـالي، كان يهمـس تـحت غطائـه بما يتذكـره من آيـات القـرآن. صـوت أبيـه وهـو يعلمـه الفاتحة. صـوت أمـه وهي تدندن آية الكـرسي قبـل النـوم. إلا أن الأصـوات كانت تخفت مع الـوقت، كأن البحر الفاصـل بينـه وبين أصيـلة يبتلعهـا مـوجة بعـد موجة.

حين مـرت سنتـان، لـم يعـد يهمـس في الليـل. لـم يعـد يتذكـر صـوت أبيه بوضـوح. صـار يحلـم أحيانـاً بالتراتيـل اللاتينية، وصـار الـحنين إلـى أصيلة يختلـط بـحنين غـريب إلـى رائـحة البخـور في كنيـسة القصر.

هذا مـا يخيفـه الآن: ليـس أنـه نـسي من يكـون، بـل أنـه تذكـر من صـار أيضـاً.

وقف وهو ينفض ما عَلِقَ من التراب على ركبته ثم تابع طريقه نحو الميسرة التي كان متّجهًا إليها، هناك اعتلى ربوة ترابية وأمر قائدي القصر وشفشاون: طلحة العروسي[11] وعلي بن راشد[12] بالهجوم الشامل.

نفخت الأبواق، ودوّت الطبول فسال الوادي بالمشاة المغاربة وهم يتقدّمون تحت صيحات التكبير، يخترقون الدخان نحو الثغرات.

الرائحة كانت أول ما ضرب أنفه حين اقترب من الخطوط الأمامية. مزيج من البارود المحترق، والعرق، والخوف. رائحة يعرفها كل محارب، لكنها اليوم أقوى، أكثر حدة.

أصوات المعركة تصل إليه طبقات: في الأسفل، وقع الأقدام الثقيلة، حوافر الخيل تدق الأرض كطبول عملاقة. فوقها، صراخ الرجال: "الله أكبر!" تختلط مع صيحات برتغالية لا يفهمها. وفوق كل شيء، صوت المدافع، ينفجر كرعد يهز الأرض.

رأى جندياً شاباً، لا يتجاوز الخامسة عشرة، يحمل رمحاً أطول منه. يداه ترتعشان، ولكن عينيه مشتعلتان بنار الحماس. يركض نحو السور وهو يصيح، صوته يتكسر من الخوف. بجواره، فارس مخضرم، وجهه محفور بندوب معارك قديمة، يمتطي حصاناً أسود ضخماً. يتقدم بهدوء، سيفه مرفوع، كأنه يتنزه في بستان لا يهاجم قلعة. هذا التناقض ذكر السلطان بنفسه: هل هو الشاب المرتعد أم المحارب المخضرم؟ أم شيء ثالث لا يعرف اسمه؟

بعد ساعات من القصف، انهارت أجزاء من السور. توالت التقارير على السلطان:

النبال تنهمر.

الجنود ينصبون السلالم.

يتسلقون.

يتدفقون إلى الداخل.

---

11 حاكم القصر الكبير سيتوارث أولاده حكم المدينة إلى قيام دولة السعديين.

12 حاكم شفشاون و زعيم أسرة العلميين المنتسبين إلى عبد السلام بن مشيش

فرسان تطوان يدخلون من باب البحر. من موقعه على الربوة، رأى السلطان المنظري وهو يقود فرسان تطوان عبر الممر الضيق نحو باب البحر. طويل القامة، عريض المنكبين، صوته يقطع ضوضاء المعركة كسيف يقطع الحرير.

يا خيل الله اركبي!

صرخ، ورمحه يشق الهواء. حصانه الكميت ينطلق كالريح، وخلفه عشرون فارساً في تشكيل مثالي. دروعهم الحمراء تبرق تحت الشمس، تبدو كشعلة عملاقة تتدحرج نحو العدو.

عند البوابة، برز جندي برتغالي ضخم، يحمل فأساً كبيرة. وقف في وسط الطريق، متحديًا الفرسان القادمين. المنظري لم يتردد. غرس العقب في خاصرة حصانه، انطلق مباشرة نحو العدو. اللحظة كانت خاطفة: رمح المنظري يخترق درع البرتغالي، الفأس تسقط، والرجل ينهار. لكن في اللحظة نفسها، انفتح باب جانبي، وانهمرت عليه السهام من كل جهة.

حصان المنظري يصهل، يتأرجح، ثم يسقط. الفارس يقفز، يتدحرج، ينهض حاملاً سيفه. وحوله فرسانه يشكلون دائرة حماية، سيوفهم تبرق، تصد السهام كما يصدّ المطرُ. السلطان يشاهد وقلبه يخفق. هؤلاء الرجال يموتون من أجله. من أجل انتقامه الشخصي، من أجل إثبات أنه ليس "البرتغالي". هل يستحق دماءهم؟ وصله تقرير آخر:

أصبح رجال القصر الكبير يسيطرون على أزقة السوق. البرتغاليون يتراجعون إلى القلعة الداخلية. أغلقوا أبوابها وعززوا سورها بما وجدوه من حجارة وتراب. ثم صمتٌ غريب. لا صوت سوى وقع الأقدام على الحجارة، وأنفاس الخيول المتقطعة. الجنود يمسحون العرق من جباههم، عيونهم زجاجية من التعب والترقب. دخان البارود يتطاير في الهواء بطيئاً. حتى الريح توقفت، كأن المدينة تحبس أنفاسها.

بعد ساعات، بدا للسلطان وكأن المدينة سقطت، أو كادت. كانت راياته قد رفعت على الأسوار. بدأ الجنود ينهبون الإسطبل ويطلقون سراح

الأسـرى من المطمـورة[13]، بينمـا اعتلـى آخـرون سـطح القلـعة وأحرقـوا الصـليب الخشبي في البـرج الشـمالي.

دخـل المـدينة من بـاب الحمـر[14]، الذي خـرج منـه أسيـرًا وهـو طفـل، هذه المـرة تتبعـه نخبة من فرسـانه. هُيِّئَ لـه أن دخولـه هـو إعلان عسـكري بسقـوط المـدينة، و أيضًـا انتصـار شخـصي لـه. خطـا حصانـه ببـطء فـوق الحجـارة المحتـرقة التي كان يعرفهـا طفلًا. هنـا كان يجـري خـلف الحمـام، هنـا كانت أمـه تناديـه لـلغذاء. والآن يدخـل فاتحـاً، لـكن مَن الذي انتصـر؟ الطفـل الذي خـرج أم الرجـل الذي عـاد؟ أحـسَّ كأن الزمن انحنـى تـحت قدميـه. أن حجـارة بيـوت أصيـلة تنظـر إليـه، توافقه أنـه أخيرا نـال انتقامه مـمن لطخـوا سـمعة طفولتـه.

تـوقّف لـحظة في وسـط الميـدان ونظـر إلـى السـماء. ثـم التفت إلـى أميـرٍ كان وراءه ضـمن حاشيتـه وابتسـم لـه بمعنـى فهمـه الاثنـان بأنـه يـعني أن السـلطان لـم يفقـد أصيـلة كما فقـد الأميـر "الزغبي"[15] غرنـاطة. فكـرة من كانت أن يصـحب معـه إلـى الحصـار أبـو عبـد اللـه، آخـر ملـوك غرنـاطة؟ الرجـل الذي سـلم مفاتيـح الأندلـس لفرديناند وإيزابيلا. تذكـر قصتـه كما يرويهـا النـاس: كيف أنـه بكـى وهـو ينظـر إلـى غرنـاطة للمـرة الأخيـرة، فقـالت لـه أمـه الكلمـات التي صـارت لـعنة تتـردد: "ابـك كالنسـاء ملـكاً لـم تحـافظ عليـه كالرجـال."

هـل سيقولـون عنـه الشيء نفسـه؟ هـل سيصبـح اسـمه رديفـاً للخيـانة والضـعف، مثـل الزغبي؟ لا، هناك فرق. الزغبي سـلم غرنـاطة طواعية، خوفاً علـى حياتـه. أما هـو، فهنـا يحـارب لاسـتردادهـا. لـكن... ألا يحـارب بأسـلحة تعلمهـا من أعدائـه؟ ألا يخطـط بعقـلية شـكلتها سنـوات الأسـر؟

خطـر ببالـه أبـوه، السـلطان الذي أسـس دولة بني وطـاس. رجل لم يسـمع

13 حفرة عميقة تحفظ فيها المؤن، استعملت أيضا كسجن للأسرى

14 نسبة إلى الحمر و هي مدينة ادريسية جنوب أصيلة خربت بعد سيطرة البرتغاليين على هاته الأخيرة.

15 عبد الله الصغير، آخر حاكم نصري مسلم لغرناطة، التجأ للوطاسيين بعد سقوط الأندلس و عاش بينهم إلى أن قتل لاحقا في إحدى معاركهم ضد السعديين.

كلمة برتغالية واحدة، لم يتساءل عن هويته. كان يعرف من هو وماذا يريد. مات وهو يحارب البرتغاليين. "أي نوع من السلاطين أنا؟" همس لنفسه. "الذي يحارب أعداءه، أم الذي يحارب نفسه؟"

في تلك اللحظة، أرجعه إلى واقعه هتافٌ ارتجّت له الأزقة:

السلطان دخل! السلطان دخل!

ارتفعت تكبيرات الفقيه ابن عبد الكبير البادسي. الجنود يكبرون خلفه. صوت التكبير يملأ المدينة. لكن في أذنه، صدى آخر... ترانيم لشبونة. لماذا لا يختفي ذلك الصدى؟

قبل أن يختمر الفرح في نفس السلطان، تناهى صوت آخر: بوق طويل من جهة البحر. تبعه آخر، ثم آخر. ركض أحد الكشّافة لعند السلطان وهو يصرخ:

— الله ينصر المولى محمد، كرافيلات[16] ! سفن تقترب من البحر، كثيرة... راياتها برتغالية يا مولاي!

توقف السلطان عند طرف الطريق المؤدي إلى البحر، محاطًا بخاصّته. رفع يده ليحجب وهج الغروب، لكن وجد نفسه يحجب شيئًا آخر... مشهد أخيه يحيى يسقط. هل رفع يده وقتها؟ هل حاول منع السكين؟ لا يتذكر. أو لا يريد أن يتذكر.

يحيى كان الأخ الأكبر، وليّ العهد، الوريث الشرعي. لكنه كان أيضاً الأكثر شكاً في محمد. الوحيد الذي لم يصدق أن عودة أخيه من لشبونة كانت نجاة بريئة. في تلك الليلة، كانوا في ديوان القصر. محمد يقف في الطرف، كعادته، صامتاً، يراقب. يحيى يتحدث مع الوزراء عن خطط الجهاد، عن استرداد الثغور، عن المعاهدات مع البرتغال التي يجب نقضها. ثم التفت إليه فجأة، عيناه محتقنتان بغضب كان يكبته منذ أشهر: "وماذا يقول أخونا 'البرتغالي' في هذا؟"

اللقب. قالها علناً، أمام الجميع، وأمام زيان. قالها بنبرة لا تخفي

16 سفن حربية برتغالية

الاحتقـار. صـمت محمـد. لـم يعـرف كيف يـرد. في اللـحظة نفسـها، رأى الظـل يتحـرك خـلف يحيـى. سـكين تبـرق في يـد خفية. كان الـوقت كافيـاً لصـرخة تحذيـر، لحـركة، لكلـمة.

لكنـه لـم يفعـل شيئًـا. ربمـا لأنـه تجمـد. ربمـا لأن جزءاً منـه، جزءاً صغيـراً مظلمـاً، أراد أن يـرى مـاذا سيحـدث. ربمـا لأن الـلقب "البرتغـالي" طعنـه أعـمق من أي سـكين.

سقـط يحيـى. الـدم انتشـر علـى البلاط الأبيض مثـل خريـطة حمـراء. وحين التقت عيناهمـا للـحظة الأخيـرة، رأى محمـد في عيني أخيـه شيئًـا أسـوأ من المـوت: الفهـم.

فهـم يحيـى، في لحظتـه الأخيـرة، أن أخـاه اختـار. اختـار الصـمت علـى التحذيـر. اختـار العـرش علـى الأخـوة. منذ تلـك الليـلة، لـم يعـد محمـد ينام بعـمق. في كل حلـم، يـرى يحيـى واقفـاً أمامـه، ينـطق الـلقب مـرة أخـرى: "البرتغـالي". لـكن هذه المـرة، الصـوت يخـرج من حـلق مقطـوع، والـدم يقطـر من الكلمـات.

حـدّق في الأفق. بـدت أولـى الـسفن كنقـاط سـوداء فوق صفحة المـاء، لكنها تكاثـرت بسـرعة، ثـم اقتـربت حتـى ظهـرت سـارياتُها وأشـرعتُها. اشتعـلت المشـاعل فـوق المـوج، ورُفـعت رايـات برتغـالية جديـدة في البحـر، وبـدا أن المـدّ تغيّـر...

تحـرّكت الـسفن في صفـوف، المجـاديف تضـرب المـاء بإيقـاع واحـد، وراية الصـليب ترفـرف فـوق كل مقـدّمة.

همس أحد القادة من خلف السلطان:

سفن من طنجة.

قال آخر:

سفن من فارو[17].

لـم يـرد السـلطان. كانت عينـاه علـى المـاء، لـكن ملامحـه ظـلت سـاكنة، لـم يبـدُ عليـه الخـوف، قـرر مع أخيـهِ الناصـر أن يواصلـوا الحصـار، التراجع

الآن سيرى كعلامة ضعف. لذا عليه أن يستعيد أصيلة مهما كلف الأمر، ليس فقط لكونها ثغر مغربي بل لأنها المكان الذي اقتلع منه طفلا.

حين عاد إلى فاس، بعد سنوات في لشبونة، لم يكن ثمة احتفال. فقط صمت ثقيل، ونظرات متفحصة، وهمسات خلف الأعمدة. كان يمشي في أروقة القصر التي نشأ فيها، لكنها بدت غريبة. ليس لأنها تغيرت، بل لأنه تغير. خطواته تدق على الرخام بإيقاع مختلف. نظراته تقع على التفاصيل التي لم يلحظها طفلاً: النقوش الهندسية، زخارف الجص، لعبة الضوء والظل. جمال لم يره من قبل، لكنه جمال يراه الآن بعيون تعلمت تقدير الفن في القصور البرتغالية. الخدم كانوا يحيونه باحترام، لكن احتراماً فيه حذر. كأنهم يحيون شبحاً. أو كأنهم يحيون عدواً مهذباً.

انفجار مدوٍ هز الأرض تحت قدميه، أعاده بقوة إلى الحاضر. تصاعد عمود دخان أسود من جهة الشاطئ، وارتفعت صرخات الجنود تختلط بصهيل الخيول المذعورة. ركض أحد الكشافة نحوه وهو يصيح:

البرتغاليون ينزلون مدافع ثقيلة يا مولاي!

نظر إلى البحر مرة أخرى. السفن تقترب أكثر، وبدا أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد.

عاد به التفكير إلى أسوأ ما في عودته لفاس: صوته. في لشبونة، اعتاد الحديث بالبرتغالية والإسبانية واللاتينية أكثر من العربية. حين عاد، كان لسانه يتعثر في كلمات كان يقولها ببساطة وهو طفل. كان يبحث عن الكلمة العربية ويجد البرتغالية أولاً. في أول جمعة، صلى في المسجد الكبير. واقف مع المصلين، يردد الفاتحة، لكن في رأسه أصداء أخرى: **"Pater noster qui es in caelis..."** الصلاة اللاتينية تتداخل مع العربية، تخلط الأصوات، تشوش القلب. هناك، بين المصلين، فهم أن عودته لم تكن نجاة. كانت بداية عذاب جديد: أن تكون غريباً في وطنك، وغريباً عن نفسك أيضاً.

كانت السفن البرتغالية تحتشد في الأفق، تقترب صفًّا بعد صفّ، كأنما البحر نفسه يدفعها نحو الشاطئ. ومن بين كل الاحتمالات، كان هناك اسم واحد يتقدّم، يتسرّب مثل السمّ في صدر السلطان: زيّان[18]، ابن محمد الحلو، عمّه الوحيد الذي نجا مع أبيه من سكاكين السلطان المريني[19]، وأوقدا معًا شرارة الاسترداد، لولاهما لما رُفعت راياتهم فوق فاس.

منذ الصبا سبق زيّانُ ابنُ عمّه في كل شيء: الفروسية، الصيد، والجُرأة على الكلام. وعندما اختارَت محابيبُ محمد البرتغالي زوجًا، انغرست شوكة لا تُستأصل. أما حين قُتل يحيى[20] وتقلّد محمد المُلك، فقد رأى زيّان في ابن عمّه ناجيًا بالصدفة لا سلطانًا بالجدارة. أسكته بأن أقره على مكناس، لكنه حوّلها إمارةً لنفسه، حتى حاصرَه الناصر ففرّ إلى البرتغال. والآن يعود في طليعة الصلبان التي تملأ الأفق.

أمر بإقامة المتاريس: جذوع أشجار وبراميل رمل لا تحصى أقيمت ليلًا على الشاطئ لمنع جنود النجدة البرتغاليين من النزول على الرصيف، فرقة كاملة من الفرسان أوكلت لها مهمة حماية الشاطئ من أي إنزال بالاشتباك مع من نجح في الوصول إلى البر.

مرت أيام على هذا الوضع: دفاع حتى الموت لمنع الآخرين من النزول إلى الشاطئ، وحرب أخرى على الأسوار لاقتحام القلعة. كان الهدف منع البرتغاليين المحاصَرين من ضرب المغاربة من الخلف. جاءه نبأ أن المنظري وفرقته اقتربوا من الفناء، أمام كل بطولة لهم، كل خسارة، كانت تصل سفن أخرى من الساحل البرتغالي غاصة بآلاف المحاربين في

18 ابن عم محمد البرتغالي ،كان واليا على مكناس إلى أن تمرد و سجن، هرب إلى أزمور و طلب عون ملك البرتغال.

19 ظل الوزراء الوطاسيون أوصياء على آخر السلاطين المرينيين الضعفاء إلى أن دبر لهم السلطان عبد الحق الثاني مذبحة لم ينج منها إلا محمد الشيخ و محمد لحلو.

20 أخ محمد البرتغالي الأكبر، كان وليا للعهد، قتله أبوه بعدما اتهمه بشرب الخمر .

الخلف. عندئذٍ بدأت أصوات الجنود المغاربة تتراجع، الوجوه التي كانت تصيح بالنصر بدأت تلتفت نحو الساحل الذي بدأت دروع البرتغاليين المعدنية تبرق فيه وتسيطر عليه.

لم ييأس السلطان، غير خطته ليستطيع رجاله الصمود والدفاع على طول الشاطئ، وأشار إلى مزواره[21] أن يرسل إلى الناصر رسالة واضحة تقول له: "البرتغاليون على وشك السيطرة على الشاطئ. افتحوا ثغرة في جدار القلعة الآن... قبل أن يُطبقوا علينا من البحر والبرّ".

مرّت أيامٌ ثقيلة لم تحمل معها سوى الصمت والانتظار. ظلّت عيون السلطان ورجاله مشدودة نحو الأفق، تترقبُ بارقةً أو خبرًا. ذات زوال، جاء بن راشد مسرعًا، تبعه آخرون من خاصّة السلطان، كلهم في أعينهم سؤال واضح.

تقدّم بن راشد خطوة. ثم كأنه خاف من أن يصارح السلطان بالحقيقة، فاكتفى بالوقوف جانبًا، مفسحًا المجال لأصغر إخوة السلطان، الأمير أبي حسّون[22]، الذي دخل خلفه بخطى متردّدة، ثم قال بصوت مُتكلّف، كمن يحاول تذكّر ما لُقّنه قبل قليل:

يا مولاي... إن استمررنا...

توقف، حدّق في الفراغ، حرّك شفتيه دون صوت كمن يحسب الكلمات، ثم تمتم:

لحظة...

ثم فجأة، اعتدل في وقفته، وقال بصوتٍ أعلى وقد بدت عليه علامات الفخر:

إن استمررنا، سنُحاصر من البحر والقلعة معًا!

التفت بطرف عينه إلى بن راشد، وابتسم له ابتسامة قصيرة. سكت السلطان لحظة، كان يفضل الموت على التراجع، أراد القتال حتى النهاية لكنه عندما أدار رأسه لقياده بحثًا عن دعمهم لم يجد في عيونهم سوى

21 الحاجب, مشتقة من كلمة أمزوار الأمازيغية

22 أخ محمد البرتغالي و آخر سلاطين الوطاسيين

الحسـرة والخـوف، أمـا بين جنـوده فقـد هيّئ لـه أنـه رأى عيونًـا مغـربية تـومض بفـرح مستتـر، التجأ إلـى أخيـه الناصـر، نظـر إليـه بـحزن لـكن هذا الأخيـر اكتفـى بتحريـك رأسـه بمعنـى أن النهـاية محتـومة، عندهـا قـال السـلطان بصـوت مخنـوق:

اجمعوا الناس. سنتراجع إلى المخيم عند واد أشرقان.

الكلمـات خـرجت من فمـه كقطـع رصـاص. التراجـع... نفـس الكلـمة التي سـمعها طفلاً حين سقـطت أصيـلة أول مـرة. هـل هـو يعيـد التـاريخ أم التـاريخ يعيـده؟ هـل سيُذكـر كالسـلطان الذي استـرد أصيـلة، أم كالبرتغـالي الذي فقدهـا مـرتين؟

تـردّد الأمـر في الخنـادق، وبـدأت أصـوات الطبـول تنخفض، وتصاعـد الغبـار مجـددًا، لـكن هذه المـرة لم يكن صاعـدًا من زحف النصـر الموهوم، بل من التراجـع. رُفـع مـا تبقّـى من رايـات السـلطان، وطُـويت الخيام. انسـحب الجيش المغـربي إلـى أعـالي الـهضبة، يـراقب أصيـلة من بعيـد. من خـلف التـلة، دوّى المدفـع الضخـم مـرة أخيـرة - صـوت أجـوف يتـردد في الـوادي. حتـى المدفـع يذكّـره الآن بـلقب "البرتغـالي".

في الليـل، نزل الزَّبَـد من أفـواه الخيـول، ومالت رؤوسـها تعبًا. غَـرقت خيمة السـلطان في عتـمة رمـادية، الشـموع مـطفأة والصـمت ثقيـل. جلـس وحده متكـوّرًا في ركنهـا يحـدّق في ظلامٍ لا تـراه عينـاه المتسـعتان. الطبول التي دوّت طـوال النهـار سـكتت، ولـم يبقَ سـوى صفيـر ريـح يتسـلل من شقـوق القمـاش. جلـس هنـاك، كتفـاه منـحنية، من بعيـد، بـدأ صـوت يقتـرب، صوته خـافت، يعلـو وينخفض كهمـس الريح:

الله... الله... قل الله...

ظهـر الـمجذوب عـلي الـدوّار بين الخيـام. كان حافيًـا فـوق الأرض الباردة ويـرتجف؛ عينـاه شـاردتان وملبسـه مهتـرئ، أخنيفٌ مـمزّق يـلتف حـول كتفيـه كأنـه امتـصّ النـور. لـم ينـادِ، لـم يطـلب إذنًا. هـمّ السـلطان أن يطرده، رفـع يـده ليمنعـه... ثـم تذكّـر مـا يمـكن أن يفعـل برجـل -حتـى لـو كان سـلطانًا- إذا عـاداه أصحـاب البـركة. أجـل، ربمـا يحتاج بـركة أحد. لـم يمنعه

من الدخـول. حـرّك الـمجذوب يـده كأنمـا يزيـح ستـارًا وهميًـا، ثـم دخـل الخيـمة.

اقتـرب الـمجذوب ببـطء، يداه ترتعشـان، وكان جسـده يلتف حول نفسـه كراقـص يتبـع خيطًا خفيًـا. لفه بـرداء كان فيما مضـى فخمًا، قبـل أن تذروه الشـمس والعـراء. اقتـرب حتـى وقف أمـام السـلطان. التقـى نظـره بـعيني السـلطان، حـدق فيهمـا طـويلاً بصـمت غـامض. همـس السـلطان، صوتـه بالـكاد يغـالب الصـمت:

أعطني بركة يا ولي الله... ادعُ لنا بالغلبة.

لـم يُجبـه الـمجذوب. أدار وجهـه، كأنـه يبـحث عن شيء لا يـراه أحـد، ثـم خـرج فجأة من الخيـمة، دائـرًا حولهـا، يـلتفت يمينًا ويسـارًا كـمن يفتش عن غـائب. عـاد إلـى الخيـمة. اقتـرب ثـانية من السـلطان، ثـم مـال علـى أذنـه، وهمـس بصـوتٍ مرتـعشٍ:

فين مول الثور؟

تجمّـد السـلطان، لـم يفهـم، أرخى سـمعه فتناهى إليـه خوارٌ بعيـد، خافتٌ كأنمـا يخـرج من بـاطن الأرض، فاختلـط في أذنـه مع صريـر الخيمة. ضحك الـمجذوب همسًـا، كأنمـا يحدث نفسـه، وقال:

باقي ما جا وقتو... باقي ما جف الدم.

لـم يُجب السـلطان، وبـدا أن الـمجذوب أيضًـا لا ينتظـر جوابًـا. استـدار، رفـع طـرف الخيـمة بيـده المـرتجفة، وخـرج.

مشى بين الخيام كما جاء، صوته يخفت كلما ابتعد:

الله... الله... قل الله...

لـم يعترضـه أحـد، ولـم يتبعـه أحـد. ظـل السـلطان وحـده، لا يتحـرّك. جلس هنـاك، كتفـاه منـحنية، عينـاه علـى الأرض، كأنمـا يبـحث فيـه عما ضـاع منه في الخـارج، الليـل سـاكن. أصيـلة هنـاك، قـريبة بمـا يـكفي لتُـرى أبراجهـا، وبعيـدة بمـا يـكفي ليبـدو الوصـول إليهـا حلمًـا منكسِـرًا. في تلـك اللـحظة نبـح كلبٌ بعيـد، ثـم خمـد الصـوت كمـا خمـدَ الجيش.

مـدّ السـلطان يـده، كأنـه يلتقـط شيئًـا، ثـم تركهـا تهـوي ببـطء. لـم يقـل شيئًـا، وحين أغـمض عينيـه وغلبـه النـوم، اعتقـد أنـه رأى في حلمـه أسـوار أصيـلة تتحـوّل ثعبانًـا يلتفّ حول جيشـه، وسـمع صـوت الـمجذوب يتمطّى داخـل رأسـه:

"الدم لم يجفّ بعد...
لم يأت بعد زمن صاحب الثور"